

مقصب الترام الأخير

حمادة حامد محمود نور الدين

الركابة اللي مش بتدفع كانت بتركب من محطة الشاطبي، عربة تانية، مقعد تالت على اليمين، كل ليلة الساعة تسعة وربع، من غير ما تتأخر ولا مرة واحدة.

كابتن سالم، سائق الترام الأخير في خط رمل - فيكتوريا، كان بيشوفها في المراية. ست عجوزة، سبعين سنة أو أكتر، لابسة أسود نضيف، في حضنها علبة صفيح مربعة ماسكاها بإيديها الاتنين زي ما الستات تمسك عيالهم الصغيرين. ما بتدفعش. المحصل، اللي بيتسلل للعربة التانية من كتر الزحمة في الأول ومن كتر الفراغ في الآخر، عمره ما وقف عندها. ولا هي وقفت عنده.

وسالم، اللي بيسوق الترام من تمنية وعشرين سنة، كان عارف إن في حاجة غلط في المحطة اللي بينزل فيها.

الترام ده مش مجرد شغلانة في عيلتهم. جدّه كان أول سوّاق مصري يقف على عصا القيادة لما الشركة البلجيكية سلّمت الخط للمصريين سنة ٣٤، وفي البيت لحد دلوقتي صورته وهو واقف جنب العربة رقم ٧ مبخوط كأنه اتصور مع عروسته. وأبوه اتعيّن سوّاق سنة ٦٨، وسالم نفسه اتربى في المقصورة: كان أبوه يخبّيه

جنب الكرسي في المشاوير الأخيرة، والترام يمشي على الكورنيش والبحر على اليمين، وأبوه يقوله من غير ما يبصله: «السوّاق يا سالم مش اللي بيحرّك العصا. السوّاق اللي بيحس بالناس اللي وراه، فيقف للي لازم يقفله، ويمشي للي لازم يمشيله.»

«محطة البنزيون» دي اتلغت من خط السير من عشرين سنة، لما شالوا القضبان من الشارع الجانبي ووسّعوا الكورنيش. مفيش محطة هناك. مفيش حتى لافتة. بس الست العجوزة كانت بتنزل هناك كل ليلة، والترام كان بيقف لوحده.

يعني بالظبط: سالم كان بيقف. من غير ما يقرر. أول مرة، رجله وقفت على الفرامل لوحدها وهو معدّي المكان، والست نزلت، ومشيت في الزقاق المضلوم اللي مفروض ما يبقاش فيه مدخل، ورجله رفعت من الفرامل لوحدها كمان. سأل المحصل الشاب، مصطفى، اللي مبيتحركش من كرسيه آخر العربة: «يا مصطفى، الست اللي بتركب من الشاطبي الساعة تسعة وربع، ليه مش بتاخد منها تذكرة؟» مصطفى رفع عينيه من موبايله: «أي ست يا كابتن؟» ووصفها له بالظبط، بالعلبة الصفيح والمقعد التالت. مصطفى هز

راسه: «والله يا عم سالم ما شفت الست دي. بس المقعد التالت على اليمين كل ليلة فاضي، أنا بنفسي بقعد عليه في المشوار الأخير.»

حكى للمشرف، المشرف ضحك: «يا كابتن سالم، انت بقالك سنة بتقول الخط ده هيتحبس، أعصابك تعبت.»

الخط فعلًا كان هيتحبس. آخر أسبوع تشغيل، والإعلان معلّق في المحطات: «وداعًا خط رمل - فيكتوريا، ١٩٦٠ - ٢٠٢٦.» الترام اللي جدّ سالم سوّاقه، وأبوه سوّاقه، وهو آخر واحد في العيلة. والجرايد بدأت تتصل بيه عشان «قصة آخر سوّاق».

بس سالم ما كانش مشغول بالوداع. كان مشغول بالست.

في ليلة الخميس، قرر يعرف. وقف الترام في محطة البنزيون زي كل ليلة، الست نزلت بعلبتها، ومشت في الزقاق. سالم طلع وراها، تارك الترام واقف بإضاءته في الشارع الفاضي، وركابه القلال بيتفرجوا من الشبابيك.

الزقاق كان طويل أكتر من اللازم. حيطان عمارات قديمة ساند بعضها، وسلك ضو واحد متعلق في النص. وفي آخره، تحت الضو

الوحيد، كان في دكان صغير مفتوح في وش الليل، دكان «كل حاجة» من الزمن القديم: صابون ريحة، كتكوت، شنطة، جرايد قديمة معلقة بمشابك. والدكانجي، راجل عجوز بعمامة بيضا، كان واقف كأنه مستنيها.

الست قدّمت له العلبة الصفيح. الدكانجي فتحها، وطلّع منها ورقة، وقراها، وهز راسه، ودخل جوا وجاب لفة صغيرة مربوطة بشريط، وادّاها لها. الست خدت اللفة، وانحنت على إيده قبل ما تمشي، وهو ما حاولش يمنعها.

سالم وقف في الضلمة مش قادر يتحرك. وبعدين الدكانجي رفع عينيه وبص مكانه بالظبط، وقال بصوت وصله واضح: «تعالى يا سوّاق. انت كمان جاي تقضي شغل معاك؟»

سالم اقترب، ورجله مش ثابتة. الدكانجي ورّاه اللفة اللي في إيده، وقال: «كل واحد بينزل المحطة دي بيبقى معاه ورقة. ورقة بحاجة متقضيتش. انت ورقتك وين؟»

«أنا مش نازل محطة،» قال سالم. «أنا سوّاق الخط. الخط بيتقفل آخر الأسبوع.»

الدكانجي هز راسه بهدوء، وقال: «عارف. الست اللي كانت هنا دلوقتي، مرات سوّاق. جوزها مات في العربة دي، قاعد على مقعد السواق، نوبتجي، قلبه وقفت وهو ماسك البريك. من عشرين سنة وهي بتيجي كل ليلة بورقة: مهمّة واحدة صغيرة من مهامه هو، اللي ما قضاهاش. تشتري كيلو عدس لجارتها اللي هو كان وعدها. تسلّم توب لخياط كان ناقصه. تدفع دين قديم محدش فاكره غيرها. وترجع تاني ليلة بورقة جديدة. العلبة الصفيح دي فيها مهامه كلها، هتخلص لما تخلص.»

سالم بص للزقاق المضلوم اللي الست مشيت فيه: «والمحطة دي... مش موجودة على الخريطة.»

«المحطات الملغية مش بتتمسح يا سوّاق. بتستنى. في محطات الناس بينزلوا فيها عشان يروحوا، ومحطات بينزلوا فيها عشان يقضوا. دي من التانية. وترامكم، اللي انتو شايفينه بيتقفل، هو آخر ترام بيعدي على محطة زي دي في إسكندرية كلها.»

«بس ليك شرط،» كمّل الدكانجي وهو بيطفي لمبة الدكان، «اللي بينزل هنا مبيرجعش بورقة حد تاني. كل واحد بينزل بورقته هو. الست مرات السوّاق بتنزل بمهام جوزها لأنها شريكة مهنته، دي حالة لوحدها. أما انت؟ انت جيت وراها، مش ورا ورقتك. عشان كده همشي من هنا وانت واقف، وهرجع افتح لما توصل ورقتك.»

ومشي الدكانجي في الزقاق، وطفى السلك الوحيد، وسبّ سالم واقف في العتمة بقفلة الترام في إيده.

سالم رجع للعربة مش شايف قدامه. كمّل المشوار في صمت، وسلّم الترام للمخزن الساعة اتناشر، ومشي للبيت.

في البيت، فتح الدولاب اللي محدش بيفتحه، وطلّع منه كرتونة أبوه. أبوه، سوّاق الترام اللي مات من عشر سنين، اللي سالم ما كانش بيتكلم عنه، لأن أبوه ساب البيت وهو صغير وراح اتجوز تانية في دمنهور، ومات هناك، وسالم ما راحش العزاء.

في الكرتونة، وسط الورق القديم، لقى دفتر شغل أبوه. وفي آخر صفحة مكتوبة، بخط إيده المائل: «مهام الأسبوع: ١- أصلّح تلفزيون

ست الحاجة فتحية جارتنا القديمة. ٢- أودّي كتاب الحضرة لابن عمّي في محطة الرمل. ٣- أعتذر لسليمان.»

سليمان. ما فيش سليمان في العيلة غيره هو.

سالم قعد على الأرض جنب الكرتونة لحد الفجر.

آخر يوم تشغيل للخط، الصحافة جت، والتلفزيون جا، والمحافظة بعتت وفد، والترام اتزين بالورود. سالم سوّق العربة في المشوار الأخير، والكاميرات بتصوره وهو ماسك عصا القيادة اللي جدّه مسكها.

وعند محطة البنزيون الملغية، وقف.

الصحافيين اتلخبطوا. المشرف ناداه في اللاسلكي. سالم فتح الأبواب، ونزل على الرصيف الفاضي، ووقف جنب الباب، وقال للكاميرا الوحيدة اللي لحقت تنزل:

«المحطة دي اسمها البنزيون، اتلغت من عشرين سنة، بس أنا واقف فيها النهارده عشان أقضي مهمّة.»

وطلّع من جيبه ورقة، وقرا بصوت عالي:

«أنا سالم بن سالم، بعتذر لأبويا إني ما رحتش عزاه. وبعتذر لنفسي إني خلّيت الآخر يقول عني إني ابن اللي سابنا. أبويا كان سوّاق، ومات سوّاق، وأنا سوّاق، والعيلة دي ماسبتش خط. احنا بس كنا بنسوق في شوارع مختلفة.»

وطوى الورقة، وحطها في علبة صفيح صغيرة جايبها معاه، وسابها على حرف الرصيف، وركب، وقفل الباب، وكمّل المشوار الأخير لآخره.

الصحافة كتبت تاني يوم عن «لحظة مؤثرة في وداع الترام»، ومحدش فهم اللي حصل بالظبط. بس اللي فهموا، هما الناس اللي لسه بتنزل في محطات متقفلة، بأوراق صغيرة، ومهام آخيرة.

وسالم، من يومها، بقى يمشي على الكورنيش كل ليلة الساعة تسعة وربع. ومرة واحدة، في ليلة شتاء، سمع جرس ترام بعيد، رنة واحدة، جاية من ناحية الزقاق اللي مفروض ما يبقاش ليه مدخل.

وابتسم، ورفع إيده بالسلام، من غير ما يلف.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app